عنف الإرهاب في فيلم "رشيدة" لياسمينة بشير شويخ

الدكتورة: شرقي هاجر
قسم الفنون جامعة مستغانم

قصة الفيلم:

يحكي الفيلم قصة معلمة شابة تدعى "رشيدة"تعيش مع أمها المطلقة، التي ترفض الرضوخ لمطالب جماعة إرهابية، تمثلت في وضع قنبلة في المدرسة التي تعمل بها، ونتيجة لرفضها تتعرض لمحاولة اغتيال من طرف الجماعة فتنجو منها بأعجوبة.

تقرر أم رشيدة وبمساعدة مديرة مدرسة ابتدائية إبعاد ابنتها عن المكان الذي جرت فيه المأساة " العاصمة " إلى بلدة صغيرة مجهولة الإسم والاستقرار بها ،غير أن ما سيحدث في البلدة أفضع بكثير مما حدث في الجزائر العاصمة، حيث ترتكب جماعة إرهابية ناشطة في المكان عينه مجزرة مريعة في نهاية الفيلم، وعلى وقع أنغام عرس فتاة من سكان البلدة تختطف، ويغتال أهلها وأهل المنطقة لتتجه رشيدة صوب المدرسة التي أحرقت، وتدون "عنوان الدرس"على السبورة وينتهي الفيلم بصور المدرسة المخربة عن آخرها(1)

مظاهر العنف في الفيلم:

صنف فيلم رشيدة ضمن الأفلام التي تعالج موضوع الإرهاب بالجزائر، غير أن المخرجة زاوجت بين موضوعين مشيرة لوضعية المرأة

أثناء الأزمة السياسية الجزائرية، ومعاناتها من تلك الأزمة لتخلص إلى أن المجتمع يحوي النساء والرجال، وكل ما حدث فيه مس الطرفين لكنها ترتكز على عينة من المجتمع الجزائري التي عانت ويلات رعب الإرهاب وبطشه هي فئة النساء وتحديدا في شخص رشيدة التي فرت من الإرهاب لتقع في بؤرته، فبعد الهجرة من العاصمة اعتقدت رشيدة وأمها أنها قد نفذتا بجلدهما، وأخذتا يسمعان أخبار التطرف، والعنف عبر شاشة التلفزيون كحادثة مقتل الرهبان السبعة التي ركزت عليها المخرجة، وفي محاولة منها لنسيان ما عانته تقرر رشيدة الخروج للعمل أين تصادف أناسا متطرفين، وتكاد تموت رعبا عندما تشاهد شابا يحمل مسدسا فتفر هاربة عائدة للمنزل.

تحكي المخرجة قصة نساء مضطهدات في الفيلم ،مثل قصة الفتاة التي تغتصب من طرف الإرهابيين، وترجع إلى القرية أين يتبرأ منها أبوها فتأويها أختها(2)، وفي مشهد بالغ الأثر في النفس "مشهد الحمام"(3)، نشاهد الفتاة المغتصبة وهي تحاول غسل العار الذي لحق بها جراء فقدانها لشرفها، وحملها لطفل بريء لم ير النور بعد.

كما يصور الفيلم قصة العروس التي تزف لعريس غير الذي تحب، وتختطف في نهاية الفيلم على يد الإرهابيين، ففي قصة العروس تفتح المخرجة قوسا لتتحدث عن بعض تقاليد المجتمع الجزائري الايجابية والسلبية معا، تتمثل الأولى في التحضير لجهاز العروس التي تحضره أم رشيدة الممثلة:"بهية راشدي"من الجزائر العاصمة ثم الاستعداد لاستقبال العرس من خلال "مشهد الحمام" والمشهد الكوميدي المتمثل في

مشهد:"ذبح الخروف"(4)، إذ يفر هذا الأخير ويلاحقه الأطفال فهذا المشهد ورد من أجل التخفيف من الفعل التراجيدي وإبراز بساطة المواطن الجزائري وعفويته.

أما ما هو سلبي في هذه القصة هو قمع العروس، وعدم زفها للشخص الذي أحبته ورضوخها لرغبة الأب الذي قرر تزويجها لشخص آخر ما عدا الشاب الذي أحبها وواجه أبوها في عدة مرات، وعليه فإن قصة الفتاة جاءت لتعبر عن ظلم العادات، والتقاليد التي جاءت مخالفة للشرع والدين، عنف نفسي مارسه الأب على ابنته.....

لقد كانت المشاهد السالفة الذكر بمثابة الهدوء الذي يسبق العاصفة فليلة العرس، ليلة الفرح تتحول إلى مأتم حين تهجم الجماعة الإرهابية(5)، وبعواء كعواء الذئاب تقتل وتبطش وتخطف، فحتى الأطفال لم ينجو من تلك الليلة البائسة.

ترتكب الجماعة الإرهابية مجزرة جماعية في حق سكان البلدة في ليلة فرحهم، فتسمع رشيدة أمير الجماعة، وهي مختفية وراء الأشجار حاملة لرضيع تاه وسط الزحام يطلب من أحدهم البحث عن المعلمة الجديدة (6).

لقد لاحق الإرهاب "رشيدة " في كل مكان ذهبت إليه، وهي إشارة من المخرجة أن كل مكان في الجزائر كان فيه البطش، والقتل إنه بمثابة الطاعون الذي لحق بنا.

تصور المخرجة مخلفات ما تركه الإرهاب من تقتيل وتخريبفي صباح اليوم التالي، حيث تهيئ جثث الشهداء من الأطفال والنساء أمام

مقبرة البلدة ويقرأ عليها القرآن تهييئا لدفنها(7) إنه تعبير صريح عن عنف همجي أعمى لا دين ولا ملة له، فبأي حق يغتال هؤلاء؟

في مشهد الختام تخرج رشيدة من بيتها ومحفظتها بيدها متجهة صوب المدرسة، فيلحق بها من نجا من المجزرة من التلاميذ حاملين لمحافظهم أيضا، وتدخل قسمها المخرب كليا وتكتب درس الحصة الذي يحمل عنوان النهاية(8).

إن المتمعن في مغزى هذا المشهد، والمغزى العام للفيلم قد يجوز له أن يتساءل:

– لماذا المدرسة ؟ ولماذا استهداف الأطفال ولماذا بنيت قصة الفيلم على امرأة تدعى: " رشيدة " وسمي الفيلم باسمها؟

إذا عدنا لتصفح تاريخ الجزائر، نجد أن الاحتلال الفرنسي كافح من أجل تجهيل الشعب الجزائري وتفقيره، ليكون تابعا لفرنسا الاستعمارية وبحاجة إليها دائما لتحقيق مطامعه في هذا البلد، حيث كافح الجزائريون وتجلى دور الزوايا واضحا من خلال الوظيفة التعليمية والعقائدية، إنها نفس القصة تعاد من جديد لكن في ثوب آخر حاملة في طياتها نفس الإيديولوجية، هي معادلة صعبة تحمل في كنفها فكرة :"من ليس معي فهو ضدي "ترجمت بعبارة :"إما أن نكون حاملين للفكر المتطرف أي إرهابيين أو نباد جميعا".

إنها نفس الطريقة التي استعملتها فرنسا الاستعمارية، فالإرهابيون بفكرهم المتطرف حاولوا تجهيل الشعب بحرق المدارس وترويع الأطفال

حتى لا يذهبوا للمدارس، ويحاربوا الفكر المتطرف – كما فعلت فيما مضى منظمة " O.A.S" – تحت غطاء الشريعة والإسلام البريء منهم براءة الذئب من دم سيدنا يوسف عليه السلام.

وظفت المخرجة قصة وضع القنبلة في المدرسة بالجزائر العاصمة لقتل البراءة والقضاء على المدارس، لأنها بنظر الإرهابيين تنشر الفكر الغربي، ثم صورت تخريب المدرسة وحرقها بالبلدة النائية التي أقامت فيها رشيدة، ففي الفيلم جماعتان إرهابيتان ناشطتان الأولى بالعاصمة والثانية بالبلدة كلتاهما حاربتا العلم نصرة للجهل، والتخلف، والأمية والرابط بين المدرستين هو المعلمة "رشيدة" نموذج للمرأة الجزائرية الشجاعة التي لقنت فرنسا فيما مضى درسا لا ينسى، فالجزائر التي أنجبت بالأمس(جميلة بوحيرد) و(حسيبة بن بوعلي) لا زالت تنجب نساءا يواجهن التحدي.

لقد أعطت رشيدة درسا في الإنسانية، والوطنية بموقفها الجريء في بداية الفيلم وفي نهايته عندما حملت محفظتها وشقت طريقها– المخضب بدماء الشهداء المصطفين انتظارا لمواراتهم الثرى بالمقبرة – نحو المدرسة والقسم بالتحديد وهي محاطة ببعض الأطفال ممن لم تنل منهم أيدي البطش والغدر مدونة بذلك نهاية القصة، معلنة عن قهر الخوف، والرعب وعن بداية قصة التحدي رفقة تلاميذها حاملة شعار لا للخوف ونعم لمد الجزائر بجيل لا يعرف الرجوع إلى الوراء.

"رشيدة" بين الإسلام و التطرف:

حاز فيلم "رشيدة"على أزيد من 15 جائزة عبر العديد من المهرجانات العربية والدولية، حيث تحدثت مخرجته: يمينة بشير شويخ في تظاهرة: بانوراما الفيلم الثوري 2013 بعد عرض الفيلم وافتتاح النقاش حوله أنه ومنذ كتابة السيناريو وهي تكافح لإخراج هذا الفيلم علما أنها كتبته سنوات التسعينات أيام العشرية السوداء أما إخراجه تم في الألفية الجديدة .

ضمنت المخرجة فيلمها مواقف تدافع فيها عن الإسلام وتتبرأ من التطرف والتعصب الأعمى وفي هذا الصدد تقول: "صورت الأم وهي تعبر عن سخط، وغضب واضحين في الفيلم ،حيث تتحاور النساء الثلاث: المديرة والمعلمة والأم، ويبرأن الإسلام من القتل والبطش الذي تقوم به الجماعات المسلحة(9)، فقد وصلت الرسالة عبر هذا المشهد، لكنه جاء مغرقا في الوعظ مباشرا في حواراته، وما دامت المخرجة قد اختارته للحديث عن الإسلام والإرهاب، فهي أكدت عبره على فكرة أن الإرهاب لا يعادل الإسلام إطلاقا.

لا شك أن للصورة سحرها في التعبير عما نشاء من المواضيع، كما أن الإلحاح الإعلامي بأسلوب المس السريع والمتكرر لأي فكرة هو من أنجح الأساليب الإعلامية، وأسرعها تأثيرا فلم تكف السينما الغربية عن تصوير العرب والمسلمين بأنهم مجموعة همج وجهلة وإرهابيين(10)،

وما أن يأتي ذكر الإسلام حتى يتخذ ذريعة للنيل من العرب، والقول بأنه بداية تاريخهم تارة، وبأنه السبب في تخلفهم تارة أخرى"(11).

ظهرت بعد أحداث 11 سبتمبر 2001 العديد من الدراسات الشارحة، والمحللة، والمتحدثة عن السينما والأدب، وعلاقتهما بأحداث نيويورك مازجة بين ما أفرزته السينما الأمريكية منذ سبعينيات القرن الماضي من أفلام العنف، والجريمة، والإرهاب، وبين هجومات 11 سبتمبر على اعتبار أن "النص الأدبي (رواية أو قصة) يمكنه (أن يدمج متلقيه في تركيبة ملامحه) اعتمادا على رأي (جوليا كريستيفا) في كتابها علم النص ،التي تبين أن السينما تلعب دورا محوريا في توجيه سلوك الأفراد، وهي وسيلة فعالة لتوجيه أهدافهم، واتجاهاتهم داخل المجتمع"(12) ،وتجدر الإشارة أن مئات الأفلام التي أنتجت، وتنتج سنويا تتسم بالعنف ولعل أخطر ما في الأمر كيفية تلقي هذه الأفلام، وحدوث التماهي بين النص أي (السيناريو)– وبالتالي الفيلم – وبين المشاهدين، وما ينتج عن هذا هو حدوث تراكم، واستجماع لمعلومات موضوعية بوجهة نظر صاحبها، أو مخرجها، أو كاتبها، وبالتالي يقدم فيلما على مقاسه وحسب إيديولوجيته يوجه به الرأي العام.

تجدر الإشارة إلى أن النقاد الأمريكيين قد أعلنوا أن هوليود أنتجت ما يزيد عن 150 فيلما يسخر من الإسلام والعرب منذ 1986(13) على غرار أفلام مثل: قرار إداري – أكاذيب حقيقية – الحصار – طائرة السيد الرئيس – رحلة الرعب – محاكمة إرهابي – درع الرب – يوم الاستقلال، وغيرها ممن تناولت العرب والمسلمين

بصورة سلبية ومسيئة للغاية، ففي حين كانوا ينبذون العنف في أفلامهم ليلصقوه بغيرهم، مارسوا عنفا فكريا متطرفا في حق المتلقين.

إننا بحديثنا عن التصوير الغربي المتطرف للإسلام في الأفلام المقدمة خاصة الأمريكية منها منذ فترة السبعينات ،أوردناه لنقارن بين النظرة المحلية ونظرة الآخر، ففي هذا الصدد يرى الناقد:جان الكسان بخصوص تصوير المخرجة :يمينة بشير شويخ للإرهابيين في فيلمها رشيدة على أنها :"وقعت في خطأ شائع ومتعمد في الفكر الغربي حيث يخلط بين التيار الديني المتشدد، والعصابات الإجرامية التي تعيش عليه وترتزق منه، فتسقط فحوى الخطاب الديني المتشدد وتطوي دوافعه وأسبابه، وتضفي عليه الكثير من طبائع الفايكينغ والتتار"(14).

إن ما يثير في النفس الرعب في فيلم "رشيدة"، هو تصرفات الإرهابيين التي تنوعت من بطش، وقتل، واغتصاب، وذبح وليس شكلهم، كما أن المخرجة لم تعتمد على الزي الأفغاني واللحية في تصوير الإرهابيين وإنما اعتمدت على تصوير تصرفاتهم الإجرامية، ولعله جاء مبررا، فاللحية خصوصا والزي الأفغاني يوحي لدى الآخر بالانتماء للإسلام، وبالتالي الإرهاب لأنهما يشكلان نفس المعتقد بنظرهم.

خلاصة القول أن المخرجة أرادت محو صفة الإرهاب عن الإسلام، فالإرهابيون أشخاص يمثلون عقيدة الدم، والقتل، ولا علاقة

لهم بدين الإسلام الحنيف الذي حاول الكثيرون وصمه بالعنف، والتطرف، والإرهاب.

الهوامش:

Yamina Bachir chouikh, Rachida ,Production : Film de
(1)Paradoxe .2003
(2) Yamina Bachir chouikh, Op.cit (59M:00).
(3)Yamina Bachir chouikh, Ibid. (01h :11) .
(4)Yamina Bachir chouikh ,Ibid. (01h :07).
(5) Yamina Bachir chouikh, Ibid . (01h :16).
(6) Yamina Bachir chouikh , Ibid. (01h :19) .
(7)Yamina Bachir chouikh, Op.cit (01h :23).
(8) Yamina Bachir chouikh, Ibid. (01h :30)

(9) مقابلة مع المخرجة:يمينة بشير شويخ بمناسبة تظاهرة بانوراما الفيلم الثوري ،بدار الثقافة ولد عبد الرحمان كاكي، الطبعة الثانية للتظاهرة، مستغانم من25 إلى29 ماي 2013.

(10)عزت عزت ، صورة العرب و المسلمين في العالم ، مركز الحضارة العربية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ،2003 ،ص183.

(11) عزت عزت ، م .س ،ص22.

(12) رضوان بلخيري ، صورة المسلم في السينما الأمريكية ، مكتبة عراس ، 2012 ، ص 95.

(13) رضوان بلخيري ، م.ن ، ص 98 .

(14) جان الكسان ، الروايةالعربية من الكتاب إلى الشاشة، منشورات وزارة الثقافة المؤسسة العامة للسينما، دمشق، 1999، ص 289–290.